دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الماء والأحوال الصحية بأطلس مراكش
خلال فترة الحماية الفرنسية بالمغرب

المصطفى العياطي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
باحث دكتوراه كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية

مُلَخّص

يلعب الماء دورًا أساسيًا في حياة البشر، ليس من حيث أهمية هذه المادة في مجال الزراعة وتربية الماشية فحسب، وإنما لما له من دور حاسم في سلامة الصحة لدى الأفراد والجماعات. فإذا كان الماء متوفرًا وذا نوعية جيدة، فإن ذلك ينعكس بالإيجاب على الصحة العامة، أما إذا كان في وضعية رديئة فإنه يتحول الى مصدر للأمراض والأوبئة وبالتالي هلاك الإنسان. ذلك ما لم يستوعبه المغاربة في العصور السابقة، بالنظر الى جهلهم وتدنى الثقافة الوقائية والصحية لديهم. إن تاريخ المغرب الصحي حافل بالأحداث والوقائع المأساوية التي سببها استعمال الماء الملوث في الشرب أو الاستحمام، أو بسبب افتقاد الماء زمن القحوط والمساغب، التي كانت تتعاقب على هذا البلد بشكل دوري. سنتناول ضمن هذا البحث دراسة أخطار الماء الصحية في المناطق الجبلية المغربية من خلال حالة أطلس مراكش خلال فترة الحماية الفرنسية، كما أننا سنتطرق لجوانب من الإجراءات العلاجية والوقائية التي اتخذها المستعمرون الفرنسيون في هذه الربوع الجبلية من التراب المغربي، مع رصد بعض ردود أفعال الجبليين إزاء الأنماط العلاجية الجديدة التي أقحمها الأطباء الكولونياليين في هذا المجال. وقد توصلت الدراسة إلى أن السفوح الشمالية لجبال أطلس مراكش لم تكن بمنآي عن الأمراض والأوبئة ذات المصدر المائي. ذلك أن طبغرافية وهيدروغرافية هذا المجال الاستثنائي لم تمنع من أن تعاني ساكنة الجبل كذلك من العلل والأسقام التي تنجم عن افتقاد الماء زمن الجفاف أو عن ثلوث وسوء استخداماته زمن الوفرة، كما هو الحال في المجالات السهلية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٤	أبريل	٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	مايو	٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الماء؛ أطلس مراكش؛ الأوبئة المائية؛ الطب الكولونيالي؛ الحماية الفرنسية

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/kan.2024.284899.1127

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

المصطفى العياطي. "الماء والأحوال الصحية بأطلس مراكش خلال فترة الحماية الفرنسية بالمغرب".- دورية كان التاريخية.- السنة السابعة عشرة- العدد الخامس والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٤. ص ١٤٣ – ١٦١.

Corresponding author: elayaty.elmostafa@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

قبل أن يشكل الماء إلى جانب الأرض قاعدة للإنتاج الاقتصادي والغنى الاجتماعي، وسببًا من أسباب الاستقرار، فهو مادة للشرب والتطهير قبل كل شيء، بل أن الماء نفسه "يعتبر من الأدوية الناجعة، والعلاجات الشافية، فهو نافع في معالجة أكثرية الأمراض التي تعتري الناس".[١] غير أن الماء كمادة حيوية، يمكن أن ينعكس وجودها وهي في حالة الوفرة والنقاء وسلامة الاستعمال بالإيجاب على صحة الإنسان، كما يمكن أن تتحول في حالة الندرة الى مصدر رئيسي للمتاعب الصحية والوقائية، على المستوى الفردي والجماعي.

قبل فترة الحماية الفرنسية لم تكن لدى ساكنة السفوح الشمالية لأطلس مراكش-شأنهم في ذلك شأن باقي المغاربة-ثقافة وقائية، تستند الى فكرة أن الماء يحتوي على كائنات مجهرية، أو على بعض الحشرات التي قد تفتك بهم في حالة تناولهم إياه، أو أنه يمكن أن يكون في حالة كيميائية تسبب لهم أمراض جلدية عند استخدامهم له في الاستحمام والتطهير. نتكلم هنا عن الماء وعلاقته المباشرة بانتشار الأمراض والأوبئة، دون أن نغفل ما كان لندرة الماء وقلته من دور غير مباشر في تراجع الصحة العامة لدى المجتمع الجبلي، على اعتبار أن هناك علاقات سببية تربط بين الماء والغذاء والصحة. ففي قلة الماء وانحباس المطر قلة للأقوات واختفاء للغذاء، الأمر الذي ينعكس على سلامة الأجساد ومناعتها أمام العلل والأسقام. فماهي إذن الأمراض التي كان يسببها الماء بفضاء أطلس مراكش؟ وكيف كانت ساكنة هذا الفضاء تعالج هذه الأمراض؟ وهل يمكن الحديث عن أمراض مخصوصة بهذا الوسط الجبلي دون غيره من المجالات المغربية الأخرى؟ وماهي الإجراءات الكولونيالية التي اعتمدت بمجال أطلس مراكش في علاج العلل والأمراض التي كان الماء مصدرا لها؟

أولاً: أطلس مراكش (الطوبونيم والتوطين)

يجرنا البحث عن معنى وجذور طوبونيم "أطلس" الى إجراء إطلالة وجيزة عن التاريخ القديم لجبال الأطلس وتتبع تداول هذه اللفظة ضمن المنتوجين الإغريقي والروماني. فبحكم امتدادها وتكتلها وارتفاعها فقد استرعت هذه الجبال انتباه عدد غير قليل من الكتاب القدامى الذين تناولوها بالذكر عن طريق الرواية أو عاينوها ووصفوها من حيث طبغرافيتها ومميزاتها الطبيعية ومعتقدات ساكنتها المستقرة. وهكذا نجد أن هيرودوت [Hérodote] الإغريقي (القرن الخامس قبل الميلاد) قد ألمح الى هذه الجبال ووصفها دون أن يسميها، بينما ذكرها سطرابون [Strabon] (القرن الأول الميلادي) اسميا بالرواية عمن سبقوه في كتابه: "الجغرافية"، بقوله: "بعد اجتياز أعمدة هرقل، نجد جبلا يدعوه الإغريقيون أطلس والأهالي يسمونه [Dyres]..."[٢]. علما أنه كان يعني بذلك " سلسلة جبال الريف المغربية"[٣]. إلا أنه مع كتاب رومانيين آخرين مثل بومبونيوس ميلاً [Pompius Mila] (حوالي سنة 40 للميلاد) وبلينيوس الشيخ [Pline l'Ancien] (القرن الأول للميلاد) والجغرافي بطوليمايوس[Ptolemaius] (القرن الثاني للميلاد) والكاتب بوسانياس[Pausanias] (القرن الثاني للميلاد) بدأ يتضح التوطين الصحيح للأطلس ضمن جغرافيا موريطانيا، بل" أن الملك يوبا الثاني (25قبل الميلاد-23 للميلاد)-حسب بلينيوس الشيخ- ذهب أبعد من ذلك حين اعتبر أن الأطلس منبع مياه للنيل بعد أن بحث في الموضوع ، وقد سار على نفس ما ذهب إليه كتاب رومانيون آخرون مثل دون كاسيوس[Dion Cassius] في القرن الميلادي الثالث وبول اوروسيوس[Paul Orosius] في القرن الميلادي الخامس"[٤].

لعل أفيد إشارة تساعدنا في اكتشاف معنى كلمة "أطلس" هي تلك التي أوردها ديودور الصقلي [Diodor de Sicile] (القرن الأول قبل الميلاد) حيث استند فيما ذهب إليه الى اسطورة الملك المسمى "أطلس" الذي حكم المنطقة الغربية المحاذية للمحيط ضمن تراب ليبيا، ومنه تسمى رعاياه بالأطلسيين وكذا البحر المحيط بالأطلسي. وتقول هذه الأسطورة بأن الملك أطلس كان له أبناء وبنات" وقد حدث أن واحدًا من أبناء "أطلس" المدعو هيسبيروس[Héspéros] كان ذات يوم فوق قمة جبل الأطلس، يلاحظ حركة النجوم فعصفت به الرياح واختفى إلى الأبد"، كما تحدثت نفس الأسطورة عن"

بنات الملك السبعة" التي تلقب بالاطلنتيدات [Atlantides] نسبة الى والدهن أو بالهسبيريدات [Héspérides] نسبة الى والدتهن [Héspéris]."[٥]

أما تسمية أطلس مراكش فلم تأت في سياق التقسيم الإداري أو الجيولوجي للمغرب أو حتى للدلالة على خصوصيات مجال معين من الناحية الإثنية، بل هي تسمية مركبة بدأ صداها يتردد في كتابات الأجانب طيلة القرن التاسع عشر، القصد منها هو توطين الجبال القريبة والمطلة على مدينة مراكش بشكل مباشر، دون تحديد دقيق لأبعاد وحدود المجال الجغرافي الذي تشكله هذه المدينة مع هذه الجبال. إنه مجال تاريخي يتوسع ويتقلص بحسب نفوذ المدينة على ظهيرها الجبلي، ويمكننا أيضًا أن نختزل مجال أطلس مراكش من زاوية ديمغرافية، على أنه تلك المناطق الجبلية التي ظلت ساكنتها عبر التاريخ تجمعها بمدينة مراكش أواصر اقتصادية وإدارية واجتماعية مباشرة.

يسمى أطلس مراكش أيضًا بجبال مراكش[٦]، بالنظر الى قربها وارتباطها العضوي بهذه المدينة منذ ألف سنة خلت، مما جعل لهذا الارتباط أبعادًا اقتصادية (تدفق المنتوجات الجبلية الى الأسواق الحضرية بالمدينة) وأبعادا ديمغرافية واجتماعية (التراقص اليومي وهجرة اليد العاملة الجبلية بحثا عن العمل وقضاء الأغراض الإدارية بالمدينة). يمارس أطلس مراكش نفوذه وتأثيره على عدد من القبائل الجبلية والديرية[٧] المتباينة طبيعيا وتضاريسيا وديمغرافيا، وكلها مجالات تخترقها أودية يشكل اتجاهها فضاء متواصلا بين البلد الأعلى والدير[٨]. وقد وردت تسمية أطلس مراكش ضمن عناوين لكتب عربية وأجنبية رحلية ودراسية، تناولت المغرب من زوايا متعددة: جيولوجيًا ومعدنيًا، وتاريخيًا، واقتصاديا، وسياسيا. وستأخذ هذه التسمية مكانتها المتميزة لاحقا بين دفوف الدلائل الاشهارية لمدينة مراكش في القطاع السياحي، لما تزخر به هذه المدينة بمعية جبالها القريبة من معطيات سياحية استثنائية.

ثانيًا: كشف عام للأمراض والأوبئة المائية بأطلس مراكش وأشكال التدخل الكولونيالي

٢/١-الأمراض والأوبئة المائية بالسفوح الشمالية لأطلس مراكش

يقصد بالأمراض المائية التي ستشكل موضوع هذه الدراسة -من حيث كيفية معالجتها من طرف الفرنسيين في جبال أطلس مراكش والمناطق المحاذية لها -تلك التي عرفها الأستاذ محمد بن عبد العزيز بن عبد الله بأسلوبه الخاص على أنها "مجموع الظاهرات المرضية والفيزيولوجية المتسببة عن جسم حي بعد شرب ماء ملوث بعناصر كيميائية سامة، أو بعد استعماله للنظافة الخاصة"[٩]. لم تكن هذه الأمراض بأطلس مراكش تحمل أسماءها العلمية، التي وردت بها ضمن متون الرحلات والدراسات والتقارير الأجنبية، وإنما كانت تتداول بأسماء أمازيغية محلية تعارفت عليها الساكنة. لم نعثر -في إطار البحث البيبليوغرافي والوثائقي -عن إحصاءات أو معطيات يمكن الاستئناس بها في محاولة تحديد مساحة انتشار هذا النوع من الأسقام بمجال أطلس مراكش، ولذلك سنكتفي بالحديث -على سبيل التعميم – عن مديات انتشارها أو انحسارها، مرجحين أن تكون الأماكن الموبوءة واقعة ضمن شعاع المصادر والمنشآت المائية، مثل الفضاءات الموجودة على طول الأودية والمجاري، والسواقي والخطارات والنطفيات والأحواض وغيرها.

وتفيد أخبار كثيرة أن حدة اليأس التي كان يعيشها السكان بهذا المجال من فضاء تشلحيت، زمن الأمراض والأوبئة التي يكون الماء مصدرًا لها، جعلتهم يخصوا الأولياء والصلحاء بعلاجها، وذهب بهم اعتقادهم إلى أن خصوا كل ولي بعلاج مرض معين أو مجموعة معلومة من الأمراض-كما لو كان هؤلاء الأولياء اختصاصيين مثل الأطباء[١٠] – وأشاعوا ذلك بكل الأرجاء والأصقاع، قريبها وبعيدها. فما هي طرق العلاج وأساليبه للقضاء على الأمراض المائية بفضاء أطلس مراكش على عهد الحماية الفرنسية؟ وماهي ردة فعل السكان إزاء هذه الأنماط العلاجية الجديدة؟

للإجابة عن هذه الأسئلة حاولنا أن نصنف الأمراض والأوبئة المائية بمجال أطلس مراكش -لدواعي منهجية - إلى ثلاثة أنواع:

- أمراض وأوبئة تسببها قلة الماء، بمعنى الجفاف المفضي الى المجاعة.
- أمراض وأوبئة يسببها الماء الملوث عند الشرب.
- أمراض يسببها الماء عند التطهير والاستحمام.

ولا ينبغي أن يفهم أنه حين يتفشى صنف معين من هذه الأمراض والأوبئة، يكون الصنف الأخر غير موجود، لقد أفادنا البحث البيبليوغرافي بأن كل الأصناف تكون موجودة في هذا المجال، فقط أنها تتباين من حيث درجة استفحالها وكذا من حيث نسبة ما تخلفه من ضحايا ضمن العدد الإجمالي للوفيات. أيضًا تتباين هذه الأصناف في مجال اطلس مراكش الاستثنائي بالنظر الى نوعية المياه وشروط استعمالها (مياه العيون، مياه المجاري، مياه الآبار، مياه الخطارات، مياه النطفيات، مياه البحيرات والضايات...) وكلها مياه موجودة بالمجال المدروس، ولربما تكون خريطة المياه الفاسدة هي نفسها خريطة انتشار الأمراض والأوبئة في مجال اطلس مراكش، فانتشر التيفوس في مكان، والحمى الخبيثة في مكان ، والطاعون في مكان ، والجذري والبلهارسيا في مكان آخر، فرغم أن كل هذه الأسقام نشأت محليًا عن تناول المياه الفاسدة، لكننا لم نتمكن من توطين بؤر انتشارها، إذا ما أقحمنا عوامل أخرى تتصل بالتراقص البشري بين مدينة مراكش و جبال الأطلس أو بين أكدال وأزغار اذا ما تحدثنا عن الانتجاع السنوي.

(١/٢) ١-الأمراض الوبائية المتصلة بندرة الماء

نقصد بها الكوليرا والطاعون والجدري والحمى الصفراء والتيفوس الطفيلي [exanthématique Typhus]، كانت كل هذه الأمراض مجتمعة تضرب المناطق الجبلية بأطلس مراكش بنسب متفاوتة، غير أننا سنركز على أخطرها وأكثرها انتشارًا وهو التيفوس، ذلك المرض الوبائي الذي يستفحل بالتزامن مع فترات الجفاف وقلة الماء في المجاري مما كان يفضي الى المجاعة واستفحال مظاهر البؤس والقذارة. سنولي هذا المرض الاهتمام على اعتبار أن" التيفوس لديه تشابه كبير مع الطاعون، يتميز بالنمشات والعطش الشديد، ونفس الحجاب السميك الذي يخفي سبب الكوليرا عن أعين الأطباء، يخفي عنهم أيضًا سبب التيفوس.

التيفوس **[Typhus]**: ويرجع هذا المرض(...) إلى استعمال المياه الفاسدة في الشرب"[١١]. من أعراض هذا الوباء ارتفاع في درجة حرارة الجسم وحالة الإغماء وظهور طفح أو بقع حمراء على الجلد، تنتقل جراثيم عدواه بواسطة القمل "تيليت"[١٢]على وجه الخصوص، دون التهوين من وسائط أخرى مثل البرغوث "إوردان"[١٣] والصؤاب[١٤] "إيوطن"، التي تغزو الأشخاص نتيجة لسوء نظافة الأجساد والألبسة، وتدني الحالة الاجتماعية والاقتصادية والاستقرار في أماكنة ضيقة ومزدحمة. تتكون هذه الطفيليات أيضًا بسبب عدم تغيير الملابس والاكتفاء بلباس واحد يستعمل في الليل والنهار ولمدة طويلة، ويعاني المصابون جراء ذلك بحكة شديدة. وتنتقل هذه الحشرات الصغيرة غير المجنحة من شخص الى آخر بسهولة عن طريق مشاركة الملابس والأشياء الشخصية كالأمشاط والقبعات وغير ذلك.

تفشى هذا المرض على نطاق واسع في القبائل الجبلية بأطلس مراكش كما في قبائل الدير المتصل به. تسببه بكتيريا الركيتسيا [Rickettsia] [١٥] التي بدورها تنشأ عن القذارة وتراجع النظافة في وسط مكتظ تغيب فيه تقنيات التطهير والصرف الصحي، التي كانت تتم بواسطة مطامير[Fosses septiques] ، وكلها شروط تتوفر في القرى والدواوير الجبلية حيث استفحال السكن المتجمع المتصلة منازله بعضها ببعض المعروف بـ "إغرم " . يزيد من وتيرة استفحال هذا الوباء على أوسع نطاق تدهور الأجساد وافتقادها للمناعة بسبب الجوع ، فهو مرض الخصاص والبؤس بامتياز، حيث لاحظ الطبيب بول شاتينيير [Paul chatiniéres] وجود هذا المرض أثناء جولته على رأس الوحدة الصحية المتنقلة من مراكش الى مرتفعات الأطلس الغربي ما بين 1912و 1914، واقترح أنداك سلسلة من الإجراءات الصارمة لعزل وحرق جميع الأشياء الملوثة كما فرض التطعيمات المضادة[١٦]، وهي إجراءات اصطدم تنفيذها بمقاومة من سكان الجبال بسبب جهلهم وقناعتهم بأن لا شيء يمكن أن يمنع المرض الذي يرسله الله لهم "فهو

مكتوب"، لأنهم لا يستوعبون الدور الوقائي للنظافة الأوروبية[١٧].

ويعتبر التيفوس من الأمراض المستوطنة أي تلك التي تبدوانها قد اختفت تمامًا، لكنها سرعان ما تعود حين تتوفر بعض الشروط كعودة مظاهر البؤس الناجمة أساسًا عن شح المياه، فتستعيد على الفور ضراوتها في شكل وباء، يؤدي الى الفتك بأعداد كبيرة من الجبليين ، وهذا ما حدث بهذه الجبال طيلة الثلث الأول من القرن العشرين، حتى سميت تلك الأعوام بـ "عام التوفيس " والتي ما تزال آثارها عالقة في أذهان عدد ممن التقيناهم واستفتيناهم من مسني ومسنات تلك المناطق، من فرط ما شاهدوا -بأم أعينهم -من الجثث من مختلف الأعمار تتساقط صريعة في كل مكان: على الطرقات في الحقول في الأسواق، أثناء جني الزيتون في المساجد، وفي الأزقة بالعشرات كل يوم.

(١/٢) ٢-الامراض المتصلة بثلوث مياه الشرب

الأوبئة الحمية

نقصد بالأمراض الحمية أو الحميات مرض التيفويد [Typhoïde]ومرض حمى المستنقعات [Paludisme]، والحمى الراجعة (الحمى المتقطعة) [La fièvre récurrente]. يعرف مرض التيفوئيد في اغلب قبائل أطلس مراكش بـ "تمضونت" أو" تاولا" و"ترغى"، ويسمى عند عامة المناطق الناطقة بالدارجة العربية بـ"المكلفة" أو "السالمة" أو "القرينة". ينجم هذا المرض بالأساس عن تناول المياه الراكدة، الملوثة بالضايات والبحيرات والكلثات أو بالآبار وبالنطفيات وكذا الخطارات، التي تظل مثاباتها وفتحاتها مشرعة أمام كل أنواع القذارات الأدمية والحيوانية، كما ينتج هذا المرض عن تناول الخضروات والفواكه الملوثة. ذلك أن، حمى هذا المرض كانت تخلف الكثير من الضحايا بالأطلس الكبير الغربي خلال فصل الصيف من كل سنة بسبب تناول الأطعمة بدون غسل اليدين وكذا بدون غسل الفواكه".[١٨] يشعر الشخص المصاب بجرثومة التيفويد " بالألم في الرأس، والشعور بالوهن، وانقباض الصدر والأرق، وارتفاع درجة الحرارة أثناء الليل وانخفاضها في الصباح، بالإضافة إلى الهذيان، وانقباض العضلات، وكذا شدة العطش وتبدل لون اللسان"[١٩]. وعلى الرغم من حرص الجبليين على تصفية[٢٠]ماء الشرب قبل شربه باستعمال الأقمشة، فإن هذه الأخيرة لا تسهم في التخلص سوى من الشوائب المرئية بالعين المجردة فقط، مثل: عيدان القش وأوراق النباتات والطحالب والحصيات الصغيرة، وبعض الحشرات الدقيقة بنية اللون المعروفة بـ"الزغلال"[٢١].

لم تكن عملية التصفية تلك لتحول دون بقاء الكائنات المجهرية بالماء خصوصاً الكائنات الغائطية والروثية [les colibacilles]، التي لم تكن الساكنة على دراية أصلا بوجودها. مع العلم أن مياه العيون الجارية هي الأخرى تتعرض للتلوث، على الرغم من خروجها نقية من منابعها[٢٢]، حيث تعلق بها القاذورات والكائنات الميكروبية الناجمة عن الطحالب السامة وعن الكائنات الحية التي ترتع بمجاريها كالضفادع والسلاحف والهوام البرمائية صغيرة الأحجام. ومعلوم أن سكان بعض الهضاب المنخفضة والديرية من الأطلس المراكشي - حيث يستغل الناس في الشرب مياه النطفيات" تينوضفيين" والآبار والأحواض المائية المعروفة بـ"تيفروين"- قد دأبوا منذ القديم على استعمال أساليب أخرى في تنقية الماء، ومنها جلب نوع من اسماك وادي نفيس وتاساوت ورميها بتلك المنشآت حيث "تتكفل" بالتقاط الكائنات الحية الصغيرة ،أو رمي كميات من رماد الحطب "إيغد" بها كطريقة متعارف عليها في تنقية الماء وتخليصه من الكائنات الحية[٢٣]، كما اعتادت فئة منهم على "خلط القطران مع الماء حيث يعمل على تنقيته[٢٤]، ولو أن في واقع الأمر كانت غالبية هؤلاء السكان يساهمون عن جهل في تلويث ماء شربهم، عن طريق غسل ملابسهم وتطهير أجسادهم فيها أو بالقرب منها، بل وتعويم أحصنتهم بحريمها.

فيما يتعلق بالحمى الراجعة و"هي من الحميات التي تنتاب الإنسان وتتميز بارتفاع مفاجئ في درجات الحرارة لديه لعدة أيام قد تصل إلى أسبوع ثم تنخفض الحرارة لتعود مرة أخرى إلى الارتفاع، لذلك أطلق عليها اسم الحمى الراجعة"[٢٥]. وهي أعظم الحميات خطرًا، حيث سمتها بعض كتب الطب التقليدي بـ"حمى الغب" وهي التي تغيب يومًا وتنوب يومًا[٢٦]، فهي متقطعة.

أما المرض الأخير فهو حمى المستنقعات [Paludisme][٢٧]: يسمى عند السكان الجبليين بـ "تويكات" ويعرف أيضًا بينهم بمرض "البرد" و"السخانة". لقد أثبتت الدراسات الصحية الحديثة بأن نوعان من بعوضة الملاريا المعروفة باسم أنوفيل[Anophèle] وهما A.claviger وA.hispaniola يمكن أن تعيشا على ارتفاع يزيد عن ٢٠٠٠ متر في المناطق المغطاة بالثلوج لفترة طويلة وينقلان مرض الملاريا الحاد هناك[٢٨]، وإن كانت "السهول المنخفضة والمستنقعية والأودية أكثر تضررًا من الجبال"[٢٩]. ذلك أن ما يدعم هذه الخلاصات العلمية هو توفر الشروط المساعدة على توالد وتكاثر الحشرة الناقلة لهذا المرض، وهي التي تتعش بالأساس بالمسطحات المائية – وما أكثرها بفضاء أطلس مراكش خلال الفصول المطيرة- بحيث " تضع البعوضة بيضها في الماء فيتحول إلى يرقات تلد بدورها بعوضا مكتمل النماء ،ومنذ البدايات الأولى لارتفاع حرارة الشمس تتطور اليرقات –بشكل كبير –في المياه الهادئة المعشوشبة والصافية، التي تكون على حافة البرك والبحيرات والمستنقعات ، وكذا بالتيارات ذات الضفاف المنبسطة ، حيث الجريان البطيء خلال فترات الجفاف أو في فصلي الربيع والصيف"[٣٠]. ولأن مثل هذه الأماكن كثيرة جدًا بالمجال الأطلسي كما أسلفنا، فهي توفر مرتعًا مفضلاً للبعوض، الذي يساهم في انتشار الوباء على نطاق واسع. يصيب هذا المرض المرء بنوبات من الحمى الشديدة ويزيد من حجم الطحال لديه، لدرجة تجعله يحتل أكثر من نصف جسمه، ليصاب بهزال شديد ويصفر وجهه ويعجز عن الحركة ليموت في النهاية.[٣١]

سيتم تداول مرض الملاريا باسمه العلمي ببعض المناطق من أطلس مراكش زمن فترة الحماية، في سياق التقارير الدورية، التي كانت تنجزها مكاتب الشؤون الأهلية بالمراكز التابعة لقيادة ناحية مراكش. وهذا لا يعني أن هذا الوباء المائي لم يكن يضرب تلك المناطق خلال الأزمنة السابقة عن فترة فرض الحماية، خاصةً وأنه وباء مرتبط بشروط موضوعية كانت متوفرة في بيئات متعددة بهذا المجال. ذلك ما أومأ إليه الرعيل الأول من المستكشفين الأجانب الذين جالوا بربوع السفوح الشمالية لأطلس مراكش ومنهم بول شاتينيير [Paul Chatiniéres] وادمون دوتي [Edmond Doutté] حيث ذكر هذا الأخير أنه: "من المحتمل أن كمية المياه الكبيرة وخصوبة التربة تسببان العديد من حالات الإصابة بالملاريا، وقد شهدنا هذا المساء عددا قليلاً من الأشخاص المصابين بالحمى."[٣٢]

لم نتمكن من العثور على معطيات إحصائية يمكن الاستئناس بها حول مدى انتشار هذه الحمى المعدية بقبائل أطلس مراكش، ولا حتى على مجرد إشارات تفيدنا عن دوائر استفحالها بمناطق معينة دون أخرى. لكن جداول إحصائية إجمالية أنجزتها السلطات الصحية الاستعمارية حول مدينة مراكش وأحوازها ورد بها ذكر هذا المرض، مما يجعلنا نرجح أن تكون للسفوح الشمالية للأطلس الكبير الغربي –التي ترتبط بهذه المدينة ديمغرافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا–حصتها كذلك من هذا المرض، إما موضعيًا كما أسلفنا أو كنتيجة لتراقص المنتجعين وممتهني العطارة المتجولين، أو عبر أشخاص موبوئين هاربين في اتجاه المرتفعات بحثا عن طوق النجاة من الأوبئة، التي كانت تضرب المدينة وضواحيها.

لم تكن لدى الساكنة ثقافة صحية تجعلهم قادرين على الفصل بين الحميات الثلاث، نظرًا لتشابه أعراضها خصوصًا فيما يتعلق بارتفاع درجة الحرارة في أجساد المصابين، لذلك تجدهم يطلقون اسم "تاوالا" على كل الأصناف. وسواء تعلق الأمر بحمى التيفويد أو حمى المستنقعات أو الحمى المتقطعة، فقد تعودت ساكنة أطلس مراكش منذ زمن بعيد –حتى ما قبيل فترة الاستعمار–على علاج داء الحمى باستخدام أدوية تقليدية طبيعة وبسيطة، منها ما يعرف ب "اللبيخة"[٣٣] وهو خليط مكون من نباتات معروفة: "تيرلين"[٣٤] و"غاغالس " أو"لمخينزة" واليقطين الأخضر (السلاوي) مع قليل من عصير الحامض أو الخل البلدي ، تدهن به جبهة المريض ويشد الى رأسه بواسطة قطعة قماش، كما يستعمل البعض البصل بوضعه في أسفل القدمين. أما العلاج من حمى المستنقعات الفتاكة –التي ظل عموم المغاربة ومن ضمنهم أهل الجبال "يعتبرون المصاب بها "مضروبًا على الما" أو به مس من الأرواح الشريرة التي

تسكن الماء.."[٣٥]- فقد كانوا يقاومونها باللجوء الى أضرحة الأولياء والصلحاء خصوصا تلك التي ترتبط بعيون الماء[٣٦]، ومنها القبور المهملة والجثوات المشهورة مجهولة الاسم سوى بنوع المرض الذي يعالج بها. يتم شرب ماء العيون المحاذية لهذه الأضرحة أو الاغتسال به، في أوقات معلومة من أيام معينة ووفق برنامج محدد، غالبا ما كان يحدده مقدم الضريح. فمثلاً، من طقوس علاج الحمى بضريح سيدي شمهروش الذي يزوره المحمومون القادمون بأعداد كبيرة من وادي نفيس، قضاء ثلاث ليال متتالية بكهف مجاور لـ "كلثة" مائية[٣٧].

يصيب هذا المرض الأطفال والشيوخ خلال الفصول المطيرة، وبالأخص ما بين شهري ماي ونونبر، وهو من الأمراض التي تعطل العمل الفلاحي وتؤثر على دورة الإنتاج الاقتصادي لذلك، كان إصرار السلطات الصحية كبيرًا من اجل حماية المعمرين. ولأن الملاريا غير موجود في الطبيعة، سواء في الماء أو التراب أو الهواء أو الغطاء النباتي -كما يمكن أن يعتقد كثيرون- ولأنه موجود فقط في دم المرضى المصابين بالملاريا في شكل طفيليات تدعى الهيماتوزوير [Hematozoires] التي تكون مثبتة في الكريات الحمراء، وأن البعوض هو الناقل لهذا المرض بين الأشخاص، لذلك فإن جهود مصلحة الصحة التابعة لسلطات الحماية تكرست لأجل القضاء عليه على مستويين أساسيين: "إزالة الهيماتوزوير من دم المرضى و القضاء على البعوض الناقل ، فذلك هو الحل الأمثل الذي من شأنه أن يؤدي إلى اختفاء الملاريا".[٣٨] اعتبر الفرنسيون هذا الوباء عدو الاستيطان والمعرقل الأول لمباشرة عملية الاستغلال الفلاحي، خصوصًا وأن أساليب الري المحلي في اغواطيم وسعادة و السراغنة وزمران ومسفيوة واوريكة وأراضي الكيش ،وكذلك مجاري الأودية ومياه الأمطار الراكدة كلها تؤدي الى خلق بؤر تكاثر مواتية لتطور بعوضة الملاريا، بل تجاوزت هذه العداوة الوباء نفسه لتشمل حتى البدو الرحل والأهليين [Les indigènes] المصابين بهذه الحمى، حيث من المحتمل أن ينقل المشتغلون منهم بضيعات المعمرين العدوى الى منازل هؤلاء.

رسم تخطيطي توضحي لمسار العدوي بحمى الملاريا **[Le paludisme]**

المصدر: مجلة أمل، العدد السادس، السنة الثانية، 1995، ص116.

البلهارسيا[La bilharioze][٣٩].

لولا أن هذا المرض الوبائي مرتبط بالماء ما فكرنا في إدراجه ضمن الأمراض المائية، ولولا أن الشروط الموضوعية المحتضنة له بمجال أطلس مراكش متوفرة ما زاد إصرارنا على الحديث عنه ضمن هذه الدراسة. البلهارسيا مرض طفيلي تسببه المياه الملوثة، ويصاب به الأشخاص الذين يشتغلون في الأنشطة المرتبطة بالماء كالزراعة المسقية اوكانسي الآبار والنطفيات والسواقي والخطارات والصهاريج المائية الريفية "تافراوت"، أيضًا يصاب بها الأشخاص الذين يسبحون بالمياه المتجمعة كالضايات والدروع التي تبقى بأسرة الأودية بالتزامن مع توقف الجريان المائي خلال فترة الصيف، وكلها هذه الشروط متوفرة كما أسلفنا. تنتقل عدوى هذا المرض في التجمعات السكانية المغلقة حينما يلوث المصابون به مصادر الماء بفضلاتهم التي تتضمن الكائنات الطفيلية المسؤولة عن الإصابة بالمرض والتي تتكاثر بسرعة فائقة في الماء. ولأن المصاب به تظهر عليه أعراض تتطور "إلى حالة يحدث له التهاب في المسالك البولية، فيصبح بوله مشوبا بالدم في مرحلة أولى، ثم أحمر قاني في مرحلة لاحقة ثم يصير تبول الدم لديه أمرا دائمًا ومستمرًا"،[٤٠] مما يعني أنه يصنف ضمن الأمراض التناسلية التي تحاط بالتكتم في المجتمعات المحافظة كما هو حال التجمعات الجبلية الأطلسية والمناطق القريبة لها، ولهذه الأسباب ليس هناك معطيات حول هذه المرض مما جعله ضمن الأمراض المتستر عليها، على الرغم أنه يلازم المبتلين به لسنوات طويلة.

نرجح بأن هذا المرض كان متفشيا بفضاء أطلس مراكش نظرا لتوفر شروط تكونه، رغم أن طلائع الأطباء الذين زاروا هذا المجال قبل فترة الحماية الفرنسية لم

يذكرونه، بما فيهم الطبيب موشان [Mauchamp] "الذي كان يعمل بمراكش ما بين 1905و1907، ولم يورد في مذكراته أي ذكر لداء من هذا القبيل، ولا نخال الدكتور موشان ممن يغفل التصريح بهذا الداء لو صادفه"[٤١] يقول الأستاذ بوجمعة رويان. غير أن عددا من الدراسات بدأت تتحدث عن وجود هذا المرض بنواحي مدينة مراكش ما بعد سنة1915، مثل الدكتور جوب [Job] [٤٢]والدكتوران كاروس[Carrosse] وبيرنيود[Berneoud][٤٣] والدكاترة لوبيناي [Lepinay] وكريفان [Grevin] وبيتريكس[٤٤][Bietrix]. يتعذر الحديث عن وجود أدوية فعالة كان يستعملها سكان مجال اطلس مراكش بقسميه الجبلي و الديري، في معالجة البلهارسيا سوى لجوئهم الى الأساليب التقليدية والتي لم تكن سوى لتطيل من أمده، كزيارة أضرحة الصلحاء والاستحمام بمياه العيون القريبة منها، أو استعمال بعض الأدوية العشبية والنباتية، مثل فاكهة الحنظل [Citrullus Colocynthis] المرة، المسماة عند شلوح الأطلس بـ "تافرزيزت"، بحيث يتم إدخال مقدمة قضيب الشخص المصاب فيها بعد إحداث ثقب بها وملئه بزيت الزيتون الساخن، مؤولين الإصابة بالمرض كما لو كانت بسبب "ضربة برد".[٤٥]

الزحار الأميبي [La dysenterie amibienne ou L'amibiase]

نظرًا لارتباط هذا المرض بالقذارة وسوء النظافة وتلوث الماء- وتلك وضعيات واردة جدا - فإنه لا يستبعد تفشي مرض الزحار الأميبي في أوساط الساكنة الجبلية في أطلس مراكش والحزام الديري المحاذي له. فحسب عدد من المصنفات الطبية، يعاني المصابون بعد دخول الأميبيا إلى أجسادهم بالإسهال وآلام البطن وارتفاع درجة الحرارة وفقدان الشهية والشعور بالغثيان. لم نقف ضمن المراجع التي تصفحناها على معطيات أو حالات من الأشخاص الذين ابتلوا بهذا المرض بمرتفعات وسفوح اطلس مراكش، لكن تبين لنا من خلال توزعه الجغرافي بالمغرب حسب الدراسة التي أنجزها الدكتور فلاي-سانت ماري[Flay-Saint-Marie]رئيس المختبر الجهوي لفاس -بالاستناد على خلاصات توصل إليها أطباء أجانب ميدانيون- فإن الزحار الأميبي بمدينة مراكش كان موجودًا هناك وله بعض الأهمية؛ بل هو شائع جدًا و تصاب به الساكنة المحلية بالدرجة الأولى، أما بالنسبة لنواحي مراكش فالمرض موجود بقلعة السراغنة بأهمية محدودة نسبيا حيث "يصل الى مستوصف القلعة عشر حالات كل شهر تقريبا، أما في دمنات فيبدو نادرا وعرضيا"[٤٦].

(١/٢) ٣-أمراض يسببها الماء عند التطهير والاستحمام

يُقصد بها جميع الأمراض التي تصيب جلد الإنسان، ما خفي منه وما ظهر، نتيجة للاستحمام بالمياه الكدرة وما تحمله من كائنات جرثومية ومحللات كيماوية ومعدنية.

الأمراض الجلدية **[Maladies dermiques]**:

نذكر من هذه الأمراض ما سمعناه مباشرة من أفواه بعض كبار السن من الرجال والنساء الذين استجوبناهم في إطار البحث الميداني، ونذكر منها ما يلي، حسب الجدول أسفله:

المرض الجلدي باللغة العربية	الاسم المعروف به	اسمه بلهجة "تاشلحيت	أعراضه
داء الجرب	الجرب	أجضيض	حكة شديدة تزداد حدتها خلال الليل، وهي سريعة الانتقال بين الأشخاص. يتجلى داء الجرب في شكل نتوءات وبثور صغيرة في ثنايا الجلد.
داء البهاق	لبهك (الكاف مصرية)	لبهك	ظهور بقع بيضاء، يفقد فيها الجلد لونه الطبيعي. ظهور الشيب المبكر.
التأليل	التالول	تيفضليوين	زوائد جلدية صغيرة خشنة الملمس، لا تسبب الألم.

المرض الجلدي باللغة العربية	الاسم المعروف به	اسمه بلهجة "تاشلحيت	أعراضه
الثعلبة (السعفة)	التونية	تامجوطت	مرض جلدي يستهدف المناطق التي بها شعر بالجسم، فيؤدي الى حدوث الصلع.
التهاب الجلد التأتبي	لكزيما	تافورا	ظهور بقع على الجلد تثير حكة جافة، بالأخص على اليدين، والعنق، والوجه، والرجلين. قد تؤدي هذه الحكة إلى جروح وقروح.
تورد الجلد	تاوردايت	تاوردايت	ظهور بقع حمراء تختلف من حيت المساحة، تسبب في حكة شديدة لكنها لا تدوم كثيراً.
تشقق الجلد	لمشك	إفورسن	تشقق يصيب الأصابع واليدين والقدمين.

جدول لبعض الأمراض الجلدية الشائعة بأطلس مراكش والتي تكون المياه غير الصالحة لاستحمام سبباً فيها، حسب الروايات المحلية.

وتفصح الروايات الشفوية المحلية عن كثير من أسباب الإصابة بالأمراض الجلدية، ومن ذلك البهاق الذي يكون سببه الاغتسال بالمياه الراكدة قليلة العمق الواقعة تحت حرارة الشمس، أو عن ارتداء ثياب ماتزال بها رطوبة الماء. و"لمشك" الذي يتسبب فيه المشي بقدمين حافيين بمياه راكدة، و"تاوردايت" التي تنجم عن ارتداء ملابس ما يزال بها بلل أو رطوبة. كما أن هناك عدد من الأمراض الجلدية يعود السبب فيها لكثرة القمل والصؤاب والبرغوت، وكلها كائنات تنجم بالأساس نتيجة لغياب النظافة، وعدم الاستحمام واستبدال الألبسة بانتظام. اعتاد المصابون بهذه الأمراض منذ القديم بأطلس مراكش على اللجوء إلى أضرحة الأولياء، مثل ضريح لالة تيمليت بجلاوة حيث المرضى بالجرب أو البهاق أو الثآليل يغتسلون بمياه العين القريبة منها، ويمررون تراب قبرها على الأعضاء المصابة من أجسادهم. ويروي كبار السن تجاربهم العلاجية تلك وهم راضون على النتائج الإيجابية، معتقدين اشد الاعتقاد في بركة المقبورين المستمرة حتى بعد وفاتهم بقرون، وما تزال هذه الطقوس سارية الى يومنا هذا رغم ما تحقق من تقدم طبي بالبلاد! بالتزامن مع الوجود الفرنسي بقبائل أطلس مراكش، استمر السكان هناك في القيام بالتفلية –دون أن يكون لديهم علم بأن القمل والصؤاب والبرغوث كائنات مسؤولة أيضًا عن نقل الحمى ووباء التيفوس بين الأشخاص –التي تكون يدوية فيما يخص الرؤوس المقملة والصبئة، بينما الألبسة المصابة فيتم غمسها في الماء المغلي لأجل التخلص مما علق بها من القمل والصؤاب، أما الأقمشة والأغطية فتنفض ضرباً بالعصي، وكلها أساليب بدائية، غير فعالة ومقرفة، مما جعلها تشكل موضوعا للسخرية على صفحات الإعلام الكولونيالي.

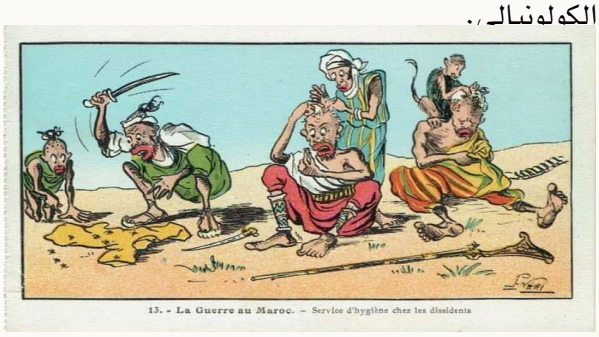

صورة ساخرة من طريقة التفلية عند المغاربة

المصدر: www.delcampe.net تاريخ الاطلاع، 5 أكتوبر 2023

(٢/١) ٤- أمراض مائية أخرى بأطلس مراكش

"تيضى"، العلق [Sangsues]:

لما كانت جميع المجاري والمسطحات المائية(٤٧) بأطلس مراكش موبوءة بالعلق(٤٨)، وكان السكان يتناولون مياهها تحت تأثير العطش إما ليلاً أو مضطرين ،يعبون تلك المياه بدون تصفية ولا معالجة، فإن معاناتهم كانت شديدة مع العلق "تيضى"[Sangsues] الذي يعلق بحلوقهم .يقتضي

إسقاط تلك الحشرة اللجوء الى المعالجين المحليين الذين يخضعونهم لوصفات علاجية متنوعة يختلط فيها ما هو طبي بما هو سحري، غير أن الدواء الشائع الاستعمال هو ما كان يقتبسه "فقهاء الشرط" من كتاب "الرحمة في الطب والحكمة"، وهو أن " تأخذ الحبة السوداء وهي السانوج وتدقها وتأخذ ماء البصل فتصبه على السانوج ويغرغر ولا يبلع الماء ويأخذ شيئا من ذلك الماء فيصب في أنفه فتسقط في الحين ميتة"(٤٩).

غير أنه خلال فترة الحماية بدأت تظهر مجموعة من التقنيات لنزع العلق من حلوق الأشخاص المصابين. ومن ذلك ما أصبح الأطباء الأجانب العاملون بالمستشفيات الكبرى في الصويرة والرباط ومراكش وفاس يتبادلونه من تجارب بينهم في هذا الشأن، من خلال نشر ما توصلوا إليه على صفحات المجلات الطبية المتخصصة، مثل مجلة "Maroc- médical". في مستشفى ميزوناف[Maisonnave] بمراكش الذي كان يمارس نفوذه الطبي على المجال موضوع دراستنا، توصل طبيب جراح يدعى فاليت[Valette] الى تقنية وصفها بالسهلة لإزالة العلق من الحلق حسب شهادة زميله الدكتور بوفريت [Bouveret] رئيس المستشفى المختلط بموكادور(٥٠).

تحصي الكلي

ثمة أيضًا مرض "تحصي الكلي" يصاب به بكثرة المستقرون بخاصرة أطلس مراكش، ممن كانوا يستغلون مياه الآبار في الشرب بشكل وبدون معالجة، وينجم هذا المرض عن وجود معدلات عالية من بعض المعادن مثل الكالسيوم. ومن أعراض هذا المرض العسر في التبول والرغبة الدائمة فيه، أو عدم القدرة على التبول أو التبول بكمية قليلة فقط. إن ترجيحنا لاستفحال هذا المرض بالمناطق المذكورة نابع من الحاضر، حيث عايشنا إحدى العائلات بدوار "ألكجي" بقبيلة أوريكة وقد لجأ معظم أفرادها على التوالي إلى نزع الحصى من الكلي بإحدى مصحات مراكش المشهورة، والسبب في ذلك حسب الطبيب المختص هو شرب مياه البئر التي بحوزتهم بدون معالجة.

تضخم الغدة الدرقية (مرض مزمن)

هناك نوع آخر من الأمراض التي يمكننا نعتها بالمزمنة ويتعلق الأمر بأمراض الغدد، ذلك ما لاحظه الطبيب بول شاتيير[Paul Chatiniéres] أثناء رحلته الصحية المعروفة إلى الأطلس الكبير الغربي، وجود عدد لافت للأشخاص المصابين بتضخم الغدة الدرقية بمناطق مختلفة من هذه الجبال. ومن أعراض هذا المرض أنه ورم غير طبيعي في الغدة الدرقية –في قاعدة الرقبة أسفل تفاحة آدم – ناهيك عن معاناة المصابين من صعوبة البلع وعسر التنفس، والسعال، وبحة الصوت، والشخير. ذلك أن الطبيب بول شاتينيير [Paul Chatiniéres] كلما حط رحاله بقرية من قرى أطلس مراكش، إلا ويقع بصره على هذا النوع من الأشخاص ضمن الحشود التي تتجمهر حوله، وقد تكرر ذلك المشهد لديه في أيت ربوح بكلاوة وأيت ميزان بغيغاية وبأماكن متعددة بقبيلة أهل تيفنوت(٥١).ليثنا تمكننا –بالاستعانة ببعض الأطروحات والدراسات الطبية المغربية– من التأكيد على أن هذا المرض –الذي كان مستفحلا بالواجهة الشمالية لأطلس مراكش والذي من أعراضه تضخم الغدة الدرقية[Le goitre] – كان سببه الماء. غير أن دراسة أجراها الفرنسي تروتات أوجين [Trutat Eugéne] المختص في علم الطبيعيات عن جبال البرانس [Les pyrénées] (طبعت ونشرت سنة 1894م)، والتي أكد من خلالها أن "الدراق في الماضي كانوا موجودين على نطاق واسع بجبال البرانس"(٥٢)، أسعفتنا في تأكيد العلاقة بين الماء وهذا المرض. وقد أفادنا هذا الباحث بقوله: "إن هناك الكثير من النقاش حول أسباب تضخم الغدة الدرقية، وغالبًا ما يُعزى تطور هذا المرض إلى جودة المياه، وبالتالي إلى طبيعة التربة."(٥٣) مضيفًا بالاستناد على الدراسات المنجزة من قبل الطبيب شوبيني [Chopinet] حول البرانس الوسطى "إذا كان للمياه تأثير معين، فإن سوء النظافة هو السبب الرئيسي لتضخم الغدة الدرقية..."(٥٤).

أما بخصوص العلاج، فلم نقف على وجبة علاجية جاهزة كان السكان يستعملونها لمكافحة هذا المرض والتخفيف من آلامه، إن كنا نرجح لجوؤهم إلى أساليب استشفائية تقليدية لا تبتعد عن زيارة الأولياء واستعمال

الأدوية التقليدية المركبة من الأعشاب العطرية وجذورها. فماهي الخطوات التي أقدمت عليها السلطات الصحية الاستعمارية من أجل تطويق الأمراض والأوبئة التي يكون الماء مصدرًا لها بفضاء أطلس مراكش، وبالخصوص تلك الأمراض ذات الانتشار الواسع المهددة للاستيطان، كالتيفوس والحميات؟

٢/٢-أشكال تدخل الطب الكولونيالي في تطويق الأمراض والأوبئة المائية بأطلس مراكش

(٢/٢) ١-الأجهزة والمؤسسات (البنية الطبية)

اتسم التعاطي الكولونيالي مع الجبال المغربية بشكل عام بالتردد على مستوى وضع الخطط الرامية للإخضاع، وذلك على اعتبار أن "معظم الجبال أراضي فقيرة غير منتجة للغاية وصعبة ومكلفة في الغزو..."[٥٥]. لذلك ركزت سلطات الحماية على السهول كونها أراضي غنية ومنتجة من ناحية وسهلة في الإخضاع والاحتلال، قبل أن تستدرك في النهاية" وحسب ما قاله بوكود[Bugeaud]: ينبغي أن تكون سيدا في كل مكان وإلا فلن تكون آمنا في أي مكان"[٥٦]. في جبال أطلس مراكش التي انيطت مراقبتها في البداية للقياد الكبار، لم تمنع هذ ه الخطة من استعمال الطب الكولونيالي- بشكل مبكر -في عملية الاختراق والتواصل عن قرب مع الساكنة الجبلية بهدف جس النبض واستكشاف الساكنة الجبلية واستمزاجها لغاية قياس درجة عدوانيتها [La xénophobie] وموقفها تجاه الأجانب، فكان الطب وسيلة لإحداث ذلك الاحتكاك. تم ذلك على اعتبار أن "الطبيب بمثابة مراقب جيد للقيم والسلوك..." [٥٧]من جهة، وأنه من جهة ثانية "فاعل رائع في التغلغل السلمي..."[٥٨]. ذلك توسع ليوطي[Liauty] في توضيحه كثيرا ضمن مقدمة الكتاب الذي ألفه بول شاتينيير" في الأطلس الكبير"، بقوله: "إنكم تعرفون أفكاري حول أهمية الطبيب في المستعمرات، وحول ما يمكن أن يقدمه من مساعدة لتمهيد بلد ما أن كثيرا من النزاعات وسوء التفاهم تنتهي بمجرد التعارف، فما هو الباسيفيكاسيون [Pacification]في غالب الأحيان سوى نهاية سوء التفاهم. إن التوضيح الأول فقط هو الأصعب، ولا بد من وجود شخص يستأثر بثقة مسبقة، وهو أمر لا يتوفر إلا في الطبيب..."[٥٩] . وقد رأى الطبيب بول شاتينيير [Paul Chatiniéres -الذي يُعَدّ أول مَنْ ترأس وحدة طبية متنقلة جالت مختلف جيوب أطلس مراكش – بأن الطبيب بهذه المناطق ،ليس فقط صانع التهدئة في الأراضي التي وصلها الغزو، بل سيكون أيضًا من يسبق أرتال الاحتلال، يمهد لتغلغل النفوذ الفرنسي ويهيئ لقبول الحماية"[٦٠]. فما هي آليات اقتحام الطب الكولونيالي لمرتفعات وسفوح وتلال وهضاب أطلس مراكش؟

المجموعات الطبية المتنقلة

انطلاقًا من توجهات الجينرال ليوطي [Liauty] الذي ما لبث يردد في خطبه مقولته المعروفة: "عندما لا يأتي المريض إلى الطبيب، فالطبيب هو الذي ينبغي أن يذهب عند المريض"، انبثقت فكرة تأسيس الوحدات الطبية المتنقلة [Les groupes sanitaires mobiles]، المعروفة اختصارًا بـ [G.S.M]، والتي سيعتمد على أنشطتها وتحقيقاتها الميدانية الزاخرة بالمعطيات، في إبلاغ الأطباء ورؤساء المناطق لاحقًا بالتفاصيل الصحية الدقيقة عن الساكنة بالجبال. يعرفها ليوطي على أنها "مستوصفات متنقلة للفحص والعلاج" وكانت هذه الوحدات الصحية المتنقلة التي اقتحمت جبال الأطلس "تتكون من طبيب أو اثنين ومن معاونين اثنين ومن ثلاثة سائقين يكون لهم ستة بغال على أظهرهم برادع ، ويتخذ الأطباء معهم أدوية مختلفة ورزمة طبية وخبائين أحدهما للمستخدمين، وأربعة قفف للأدوية وشواريات ثلاثة ومحمل القفف ومن آلة ربط البغال ستة".[٦١] تتميز هذه الوحدات الطبية بقدرتها على التنقل بسهولة والوصول الى الأماكن القصية والموبوءة، وبإمكانها "التخييم على أطراف الدوار، في الأسواق المزدحمة، بالقرب من خيمة القائد. ويمكن أن تتحرك أسابيع كاملة داخل المناطق الملوثة حيث يجب اتخاذ إجراءات صارمة. فهي في يد القائد الإقليمي يحركها متى شاء ويحدد مسارها.."[٦٢].

وجدير بالذكر أن جل المناطق المغرب تحت الحماية الفرنسية كانت تتوفر على وحدة طبية متنقلة واحدة باستثناء جهة مراكش فقد كان عددها مضاعفا[٦٣]،

حيث وصل عددها بمستشفى موشان "ست وحدات طبية متنقلة، يشرف على غالبيتها أطباء عسكريون، كانت تجول كل مناطق الرحامنة والحوز وأعالي الأطلس الكبير ومنطقة شيشاوة، من خلال برنامج زيارات أسبوعية متواز مع أيام الأسواق الأسبوعية أو المواسم الدورية"[٦٤]. وكانت أولى هذه المجموعات الطبية المتنقلة التي وصلت الى جبال أطلس مراكش هي تلك التي ترأسها الطبيب بول شاتينيير سنة 1912 بتكليف مباشر من الجينرال ليوطي.

قاعات التمريض والفحص والمستوصفات

في المسافة الزمنية ما بين1917و1925، سيتعزز وجود الطب الكولونيالي بمقدمة جبال أطلس مراكش ببنية صحية قريبة من سكان القبائل الجبلية، من خلال إنشاء عدد من قاعات الفحص والتمريض وبعض المستوصفات المركزية من خزينة الإدارة الاستعمارية، في كل من ثلاث ن يعقوب وايمي –ن –تانوت و أكويم وايت اورير وقلعة السراغنة التي شملت قبائل السراغنة وزمران وتملالت والعطاوية وسيدي رحال ...[٦٥]، وكانت هذه القاعات ملحقة بالمراقبة المدنية ومراكز الشؤون الاهلية ، وظيفتها أنها تعمل كمراكز إنقاد، أو أنها تشكل" مرحلة استشفائية أولى يتم التعرف على المرضى الوافدين قبل إرسالهم الى مراكز الاستشفاء الأخرى، ويتكلف بها طبيب يزورها مرة أو مرتين في الأسبوع غالبًا ما يكون ذلك أيام الأسواق الأسبوعية"[٦٦]. تضاف إلى ذلك مستوصفات متقدمة داخل بعض القبائل الجبلية الأطلسية، تم بناؤها من تبرعات الأطباء الفرنسيسكانيين [Les franciscains] التابعين للكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، ومن ذلك مستوصف تازارت[٦٧] بقبيلة جلاوة ومستوصف أبادو بقبيلة غجدامة، فكانت هذه المنشأة الصحية من ضمن المراكز التي حسب قول أحدهم "ينبغي أن نجعل من كل واحد منها مركزًا للجاذبية السياسية والاقتصادية التي من خلالها سنتصرف مباشرة مع هذه الفئة من السكان".[٦٨]

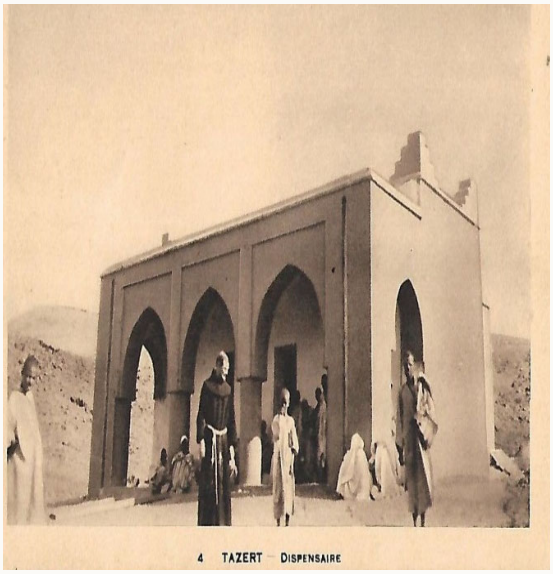

مستوصف تازارت المحدث سنة 1931بقبيلة جلاوة
المصدر: www.delcampe.net تاريخ الاطلاع ٦ أكتوبر ٢٠٢٣

مستوصف أبادو المحدث سنة ١٩٣٢بقبيلة غجدامة.
(عمل ميداني بتاريخ١٥غشت٢٠٢١)

(٢/٢) ٢-أشكال التدخل: طرائق العلاج والوقاية من الأمراض المائية بأطلس مراكش

كانت جبال أطلس مراكش مع ديرها تابعة من حيث الإشراف الصحي، لمدينة مراكش عاصمة الجنوب الطبية[٦٩]، وقد ركز ت السلطات الاستعمارية منذ البداية على حماية هذه المدينة من الأمراض والأوبئة بكل أصنافها، عن طريق تطويق كل مصادرها القريبة

والبعيدة. لقد كان الرهان الاستعماري على النهوض بعاصمة الجنوب كي تكون مدينة سياحية تستقطب إليها أكبر عدد من الزوار والعشاق على المدى المنظور. كانت هذه الرغبة يتردد صداها في الصحافة الكولونيالية كما في الخطاب الرسمي الكولونيالي أثناء جميع الاجتماعات الجهوية والمركزية، حتى أن أحد المسؤولين ذهب إلى أبعد من ذلك، حين اعتبر أن ما ينبغي اتخاذه من تدابير صحية ووقائية بالنسبة لمراكش وجهتها، يجب أن يرقى لان يكون في حجم المغرب كله.[٧٠]

جاء ذلك في معرض الجواب عن سؤال طرح في مجلس الحكومة المنعقد بمقر الإقامة العامة سنة 1945، حين أراد صاحب السؤال معرفة ما أعدته الإدارة من وسائل مادية وبشرية من أجل مكافحة وباء التيفوس والحمى الراجعة المتفشيين بشكل خطير بالجنوب قبل أن يمتدا الى الشمال أي الى مدينة مراكش وجهتها. تبنت المصالح الجهوية للصحة في مراكش – منذ البداية –خطة وفلسفة السلطات الصحية للحماية، في القضاء على الأمراض والأوبئة، خدمة كذلك للاستيطان الفلاحي وشروطه بأحواز مراكش. علمًا أن تلك الفلسفة الصحية الاستعمارية، كان هدفها "هو حماية الفرنسيين أولا من الأوبئة (...) وذلك بمنح الضمانات الصحية للمعمرين بالمغرب النافع أولا لتوفير اليد العاملة اللازمة. فالحملة الصحية حرب موجهة للاستفادة من القادرين على العمل وليس المعتوهين والأطفال والشيوخ" [٧١]. لقد كان التدخل الطبي وقائيا متعدد المظاهر والتطبيقات حسب نوعية المرض ودرجة خطورته وشساعة انتشاره والإمكانات المتاحة لتطويقه بفعالية، تم تنزيله وفق مقاربة شمولية "غالبًا ما تستخدم أساليب خاصة غير مكلفة اقتصاديًا وعلى أعداد كبيرة من الأشخاص. تتم ممارسة عملها إما بشكل مستمر ضد الظروف الوبائية المستوطنة أو في لحظة نفسية وعرضية معينة، أو عندما تكون الصحة مهددة بشكل خاص".[٧٢] وبناءً عليه اتخذت أشكال التدخل مستويات متكاملة، زاوجت بين ما هو تشريعي وتحسيسي وبين ما هو اجتماعي ـــتجهيزي وما هو طبي وعلاجي، وإن كان التركيز واضحًا على الحميات (الملاريا والتيفوس)، دون استثناء –بالطبع –للعلل والأسقام المائية الأخرى.

بالنسبة لحمى الملاريا فقد شكل هذا النوع من الحمى هاجسا للمستعمرين منذ خطواتهم الأولى بجهة مراكش، وكأنهم يستحضرون ما أحدثه هذا الوباء بأسلافهم بالجارة الجزائر. في مدينة مراكش حينما نصب الضابط مانجان [Manjan] وجنوده مخيماتهم في كل من قصر "الدار البيضاء" وجيليز والمنارة، كان انتباههم شديدا – منذ الوهلة الأولى –لما يمكن أن تشكله عليهم الصهاريج والسواقي المنتشرة بضواحي مراكش من خطر، بالنظر لما يحوم حولها من البعوض. لذلك فقد انتهج الفريق الصحي المرافق لهم كل أساليب الإبادة والتطويق لهذه الحشرة باستعمال الكينة. أما بالقبائل الجبلية والديرية فقد اتخذت محاربة حمى الملاريا وكل أشكال الحميات طيلة فترة الوجود الاستعماري، الإجراءات التالية:

–تكثيف العلاج الجماعي عبر التلقيح وتوزيع الأدوية مثل الكينين [La quinine]

–التركيز على معالجة الأشخاص الذين يزاولون أعمالا يكونون مضطرين أثنائها الى ملامسة المياه الملوثة والعمل بجوار المياه المتجمعة ذات العمق المحدود، كالمزارعين وعمال الري.

ـــ رش الوديان والبرك بالمازوط [Le pétrolage] كوسيلة فعالة لإبادة كل الحشرات.

ـــ تحديد خريطة كل البحيرات المائية الراكدة، وتمت معالجتها لمحاربة أسباب الأوبئة.[٧٣]

–استعمال نوع من الحيتان الشرهة تتناول يرقات البعوض.

– التوعية بأهمية النظافة ومكافحة البعوض وعدم الاستحمام في المياه الضحلة والراكدة.

ـــ تكليف المقدمين والشيوخ بمنع السكان من الاستقرار وبناء المنازل بجوار المجاري والمسطحات المائية، "على الرغم من جاذبية بناء المساكن في أسفل الأودية، بالقرب من نقط الماء.."[٧٤].

–استعمال القنوات بالتناوب خلال كل أسبوع لمنع استكمال تطور ونمو اليرقات.

أما بالنسبة لوباء التيفوس الذي استمر في ضرب المناطقة الجبلية لأطلس مراكش طيلة فترة الحماية، حتى بات مرضًا مستوطنا لتلك المناطق حسب إفادات متفرقة بالصحف الكولونيالية، فقد وصل ذروته الوبائية هناك خلال ثلاثينيات القرن العشرين. ذهب ضحية هذا الوباء أحد الأطباء ممن تصدوا لمكافحته مثل الأب شارل أندري بواسونيي [Charles- Andre Poissonier] الذي ابلى وفريقة البلاء الحسن في مكافحة الأوبئة المائية مثل الملاريا والجدري والتيفوس في الجزء الشمالي الشرقي من اطلس مراكش، منذ إنشائه للمستوصف الطبي في تازارت سنة 1931أ إلى غاية سنة 1938 تاريخ وفاته ، وهي السنة التي شكل التيفوس لوحده 20 في المائة من مجموع الوفيات.[٧٥]

كان هذا الطبيب قد استشعر بالخطر وهو في أوج اختلاطه وعمله الطبي مع جحافل الوافدين على المستوصف، الذين تجاوز عددهم 4000 شخص في احد أيام شهر دجنبر من سنة1937، حيث قال في رسالة مؤرخة في 4 فبراير1938: "إذا أرادني الرب أن أستمر، فلا يعوزه ذلك أن يبقيني سالمًا مع هذا الاختلاط"[٧٦]، لقد كان مقتنعًا بأن أبسط لسعة من قملة يمكن أن تودي بحياته، وذلك ما حصل فعلاً، فنقل إلى مستشفى مراكش حيث توفي يوم 18 فبراير 1938. يرجع الفضل الى هذا الأب في بناء مستوصف آخر بأبادو سنة 1932[٧٧] في قلب قبيلة غجدامة غير بعيد عن قبيلتي فطواكة وتكانة وجزء من قبيلة جلاوة، بعدما لاحظ كثرة الموبوئين القادمين من تلك القبائل القصية بأطلس مراكش إلى مستوصف تازارت، المعروف عند الساكنة المحلية بـ "لمرابو" والذي كان يشمل فضلا عن خدماته الصحية توزيع الغذاء والألبسة، على مئات من اليهود داخل ملاحهم وكذا ساكنة القبيلة العربية بسهول زمران.

سيواصل مستوصف تازارت أنشطته الطبية المعتادة في علاج الأمراض الناجمة عن احتباس المطر وقلة الماء في المجاري التي تزامنت مع أربعينيات القرن العشرين، وذلك مع خلف اندري بواسونيي [André Poissonnier] الاب ابيل فوك[Abel Fauc] الذي عرف عنه كثرة تنقله ممتطيا بغلته متجولا بين دواوير المرتفعات البعيدة بأطلس مراكش، يعالج الموبوئين المصابين -بالتيفوس والجذري والحمى الراجعة والطاعون وغير ذلك من الأسقام -من الذين لم تكن لديهم القدرة على المجيء الى تازارت أو أبادو. سيواصل الأب ابيل [Abel] مهمته الى أن أصيب بدوره بمرض التيفوس، "ففي مارس ١٩٤٦ تم نقله إلى مستشفى مراكش. ولحسن الحظ، لم يفت الأوان بعد حيث كان بالإمكان وقف العدوى عن طريق بتر ذراعه اليسرى"[٧٨].

تجمهر الساكنة الجبلية أمام مستوصف تازارت بقبيلة جلاوة، لأجل العلاج من التيفوس والملاريا والجدري خلا ل الموسم **1937-1938**[٧٩]

وسواء تعلق الأمر بالدور الذي لعبه الفرنسيسكانييون [Les franciscains] في الشمال الشرقي لأطلس مراكش أو الوحدات الطبية المتنقلة المنطلقة من مستشفيات مدينة مراكش أو من

المستوصفات الموجودة في ايمي ـــن ـــتانوت وايجوكاك وايت اورير وأكويم ودمنات ، فإن إجراءات مكافحة التيفوس تركزت على حملات التلقيح [La vaccination] والتفلية [Le dépouillage] ومكافحة الفئران وإبادة الحشرات[La désinsectisation] في الزرائب والمراحيض وكل الأماكن الموبوءة، فضلاً عن الإجراءات التي تمت على عدة مستويات أخرى:

على المستوى التشريعي والقانوني

وتمثل ذلك في القرار الوزيري في شأن المحافظة على المياه المعدة لحاجات سكان المدن والقرى ومنع تدنيسها ومما جاء في فصله الأول أنه يمنع منعًا كليًا: "أولاً: غسل الثياب وغيرها ولا سيما غسل اللحم والجلود أو ما شاكلها من المواد الحيوانية في المياه المعدة لسكان المدن والقرى والمعسكرات سواء كانت جارية في السواقي أو في القنوات أو في القواديس أو كانت في الصهاريج أو في الآبار، كما أنه يمنع غسل ما ذكر على مسافة تقل عن عشرة أمتار منها. ثانيًا: الاستحمام والاغتسال فيما ذكر من السواقي وغيرها. ثالثًا: وضع مواد مضرة بالصحة أو جعل حفاير[هكذا] للمراحيض أو المياه القذرة أو البول وذلك على بعد مسافة تقل عن عشرين مترًا مما أشير إليه من السواقي وغيرها. رابعًا: توريد الحيوانات أو غسلها أو استحمامها بها. خامسًا: المرور على السواقي والقنوات الغير المسقفة بالحيوانات والعجلات على اختلاف أنواعها ما عدا المواضع المعدة فيها للمرور. سادسًا: أخذ مواد منها مهما كان نوعها أو أخذ ما ذكر على مسافة تقل عن بعد عشرة أمتار منها."[٨٠] وفي حالة المخالفة فإن الأشخاص المخالفين يقعون تحت طائلة الظهير الشريف المؤرخ في ١٦ يناير ١٩١٦ وما يتضمنه من عقوبات زجرية.

على المستوى التجهيزي والاجتماعي

انصب اهتمام سلطات الحماية باشراك إدارة الأشغال العمومية على تهيئة نقط الماء وتجديدها واستبدالها بمنشآت عصرية، تتوفر فيها الشروط الوقائية والصحية، واستعمال مادة الأسمنت بدل المواد المحلية في بناء السواقي والآبار والأحواض الريفية. نذكر من ذلك إنشاء عدد من الآبار التي ستشتغل لأول مرة بالطاقة الريحية والمحتوية على جوابي أسمنتية اختيرت لها أماكن مناسبة بعيدة عن المثابات، كما تم بناء نطفيات مخزنية[٨١] بمواصفات وشروط وقائية جديدة، ونقصد بذلك تزويد هذه الخزانات بحريم اسمنتي ومصفاة تمنع ولوج القاذورات والجثث والأوساخ من التسرب الى قيعان هذه النطفيات زمن تهاطل الأمطار وامتلاء الشعاب، وبسلم حديدي يستعمل عند عمليات الكنس وإنقاذ المتساقطات -على الفور- من الهوام والحيوانات وحتى الأشخاص. ولأن فضاء الأطلس الكبير الغربي برمته -الواقع تحت تأثير مدينة مراكش -تميز منذ البدايات الأولى لنظام الحماية بوضع استثنائي، بحيث "كانت الألية التدبيرية الخاصة بمراكش مختلفة عن باقي المدن المغربية، من خلال قرار الإقامة العامة بالرباط التعاون مع واحد من كبار قواد الجنوب والأطلسين الكبير والصغير، المدني لكلاوي وشقيقه التهامي لكلاوي"[٨٢]، فقد استخدم هذا الأخير نفوذه من أجل توفير اليد العاملة اللازمة لكنس السواقي والخطارات المنبثقة من الأطلس، المزودة لمدينة مراكش بالمياه، وذلك بغاية مواجهة كل أسباب الأوبئة والأمراض المعدية، خصوصًا وأن هذه المدينة كانت تسجل بها دوريًا موجات من أوبئة الملاريا والجدري والتيفويد والبلهارسيا نتيجة رداءة تجهيزاتها المائية الرديئة. لقد لعب "القائد المدني لكلاوي وشقيقه التهامي لكلاوي الدور الحاسم بمنطق القوة والإكراه (...) من خلال تنظيف كلي للخطارات وللآبار المرتبطة بها وللسواقي الحاملة للماء"[٨٣]، تجسد ذلك في تجييش اليد العاملة الكافية من أجل كنس الخطارات من القاذورات وجثث الحيوانات وحتى من جثث الأشخاص الذين كانوا يقتلون في أعمال انتقامية ويرمون بها في ظروف مجهولة[٨٤].

على المستوى الاجتماعي والتحسيسي

تمحورت الحملات التحسيسية في هذه الجبال والمناطق الديرية المرتبطة به، في الإقناع بأساليب الطب الحديث والتوعية بضرورة:

-القيام بعمليات التلقيح والإقبال على العمليات الميدانية التي تنظمها الوحدات الطبية المتنقلة.

ـــجوفلة المياه وتطهيرها باستعمال مادة الكلور.

-تغلية مياه الترع والنطفيات قبل استخدامها.

-غسل الأواني قبل استعمالها وتنظيف الفواكه قبل تناولها.

-غسل اليدين قبل تناول الوجبات الغذائية، وليس بعد تناول الغداء كما هو شائع بين الناس مع استعمال الصابون.

- الاستحمام واستبدال الألبسة بشكل دوري مع تخصيص البسة للنوم.

بعض نتائج التدخل الكولونيالي لمكافحة الأمراض والأوبئة ذات المصدر المائي بأطلس مراكش.

حقيقة أن الساكنة الجبلية الأطلسية -حسب ما جاء على لسان بول شاتينيير___ كانت تتسابق إليه خلال رحلته بالأطلس الكبير الغربي، رجالاً ونساء، أطفالاً وشيوخًا، فقراء وأغنياء ينتظرون قدومه بشوق، وفي مقدمتهم الأعيان وقواد الجبال كالمدني لكلاوي والكندافي والمتوكي، الذين استضافوه بقصباتهم ورحبوا به من أجل تقديم العلاج لحريمهم وتخفيف ما بهم من أوجاع. نفس الانطباع عبر عنه قبله ادمون دوتي حين زار كندافة سنة1901، بقوله: "خرجنا من ثلاث -ن -يعقوب قبل ساعة وتوجهنا الى تينملل التي لم نتأخر في تجاوزها بحيث تسرعنا في مسيرنا خوفا من ملاحقة عدد من زبنائنا المرضى الذين يلاحقوننا. إن سمعتنا كطبيب انتشرت بسرعة في جميع أنحاء كندافة، يبدو أن الأدوية التي قدمناها حققت علاجات رائعة..."[٨٥]

لكن ينبغي التمييز أولاً بين طبيعة السلوك الذي أبداه الأطباء الذين زاروا مرتفعات وسفوح الأطلس الكبير الغربي في إطار الوحدات الطبية المتنقلة، خلال الفترات الأولى من الحماية، وكذا تصرف الفرنسيسكانيين [Les franciscains]، فهؤلاء تميز تعاملهم باللطف بالمرضى واحترام خصوصيات الساكنة الجبلية وعوائدها. وعلى العكس من ذلك، كانت تصرفات المتدخلين الرسميين في شخص أطباء وممرضي سلطات إدارة الحماية - أثناء تقديمهم للخدمات العلاجية والفحوصات لفائدة القبائل الجبلية تطغى عليها الخشونة والفظاظة[٨٦] -خصوصًا بعد التهدئة - مما كان يثير حفيظة الشلوح وسط صراخ أطفالهم وامتعاض نسائهم، مما أفضى الى صدامات بين السكان والمخازنية، كما حدث في قبيلة سكساوة الأطلسية.[٨٧]

رغم الخدمات الصحية التي قدمت للساكنة الجبلية في علاج الأمراض والحميات ذات الصلة بالماء، فإن ذلك لم يترك تأثيرًا واضحًا على الممارسات العلاجية التقليدية بجبال أطلس مراكش. لقد استمرت الساكنة في استعمال الأساليب القديمة في علاج الحميات كما أنهم استمروا في الاعتقاد بأن أمراضًا بإمكان الطب الكولونيالي القضاء عليها، لكن أمراضًا أخرى تبقى مستعصية عليه فالعلاج منها رهين بالمشيئة الإلهية.

خَاتِمَةٌ

هكذا تبين لنا بأن السفوح الشمالية لجبال أطلس مراكش لم تكن بمنآي عن الأمراض والأوبئة ذات المصدر المائي. ذلك أن طبغرافية وهيدروغرافية هذا المجال الاستثنائي لم تمنع من أن تعاني ساكنة الجبل كذلك من العلل والأسقام التي تنجم عن افتقاد الماء زمن الجفاف أو عن ثلوث وسوء استخداماته زمن الوفرة، كما هو الحال في المجالات السهلية. لاحظنا أيضًا أن سلطات الحماية الفرنسية قد بذلت جهودا في تطويق ومحاصرة هذه الأمراض بما توفر لديها من إمكانات طبية حديثة لم تعهدها الساكنة الجبلية من قبل، تقوم على استعمال اللقاحات وتناول الأدوية الفعالة والمناسبة، فضلاً عن الإجراءات الوقائية والاحترازية. وعلى الرغم مما قيل عن الطب الكولونيالي على أنه كان أداة من أدوات الهيمنة والاستقطاب والغزو، وعن التمييز بين المغاربة والأوروبيين فيما يخص جودة العلاج وشروطه بناء على قاعدة أسبقية الأجانب عن "الأهالي"، وعن الخلفية الاستعمارية المؤطرة للطب الكولونيالي الرامية الى توفير مناخ ملائم للاستيطان المفضي الى الاستغلال بأريحية، وعن الشطط والعسف والدكتاتورية أحيانا في تقديم العلاج لسكان الجبال، فإن كل هذه الأحكام لا تمنع من الاعتراف بأن فرنسا الاستعمارية تلك، قد أسدت خدمات جليلة في الميدان الطبي لساكنة هذه الجبال ولكل المغاربة، والإقرار بأن الطب الكولونيالي هو بحق غنيمة وحسنة من حسنات فترة الحماية على المغرب.

الإحالات المرجعية:

(١) بن عبد العزيز بن عبد الله محمد، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي**، الجزء الثالث. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط 1996 م. ص460.

(٢) مجذوب محمد، **جبل الأطلس قبل التوسع الروماني**، ضمن ندوة: **"الجبل في تاريخ المغرب" ما بين 20و22 يناير1994**، فاس، ص25.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) نفسه، ص27.

(٥) نفسه، ص 28.

(٦) الناصري محمد، **الجبال المغربية مركزيتها -هامشيتها-تنميتها**، الرباط، فبراير 2000، ص 142.

(٧) نقصد بذلك قائل: نفيفة، سكساوة، ادويران، امزوضة، كندافة، كدميوة، سكتانة، وزكيطة، غيغاية، مسفيوة، تكانة، كلاوة، غجدامة فطواكة وزمران وغيرها من القبائل الصغرى المحاذية.

(٨) الناصري محمد، **الجبال المغربية**.....، ص179.

(٩) بن عبد العزيز بن عبد الله محمد، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي**.....، الجزء الثالث، ص459.

(١٠) على سبيل المثال، يوجد ضريح على الحدود بين كلاوة وغجدامة بالقرب من موقع "أمكيركس"، الجماعة الترابية ايت حكيم، يدعى سيدي امحمد أيت عزي "يختص" بعلاج الأبقار (استدرار الحليب) بعد سقيها من ماء العين القريبة منه.

(11) EMANNUEL RENOR (Victor), Les eaux potables causes des maladies épidémiques. Librairie J.- B BALLIERES et FILS. Paris 1878 .p129

(١٢) ينطقها سكان قبيلة اوريكة ونواحيها بـ "تيليشت".

(١٣) ينطقها سكان قبيلة اوريكة والمناطق القريبة منها ب" إكوردان".

(١٤) يسميه عامة الناس بـ "الصيبان"، لكن تفصيحًا يسمى الصئبان "والصؤابة، كغرابة: بيض القمل والبرغوث، ج صؤاب وصئبان. وقد صئب رأسه وأصأب: كثر صؤابه...." انظر: الفيروز آبادي محمد مجد الدين بن يعقوب، **القاموس المحيط**. مراجعة: انس الشامي وزكريا جابر أحمد. القاهرة 2008 ص909.

(١٥) اطلق عليه هذا الاسم تخليدًا للطبيب الأمريكي ريكتس[RICKETS] الذي توفي وهو يدرس التيفوس في إحدى مدن المكسيك. انظر: رويان بوجمعة، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب1912-1945**، الرباط 2013، ص112.

(16) CHATINIERES(PAUL): Dans le grand Atlas Marocain Extrait du carnet de route d'un Médecin d'assistance indigène 1912-1916.Itroduction du général LYAUTEY ,Paris. Librairie PLON.PLON-NOURIT et Cie. Imprimeurs-Editeurs. p XI.

(17) CHATINIERES(PAUL),Op.Cit ; p XI.

(١٨) ب.بلانسا-أ.بيوميي-ب.لامبير- ج.كاتيل-وج.كريك، **المغرب بعيون أوروبية ما بين 1862م-1868م**، ترجمة وتقديم: بوشعيب الساوري، البيضاء 2018، ص 78.

(١٩) رويان بوجمعة، **مادة الحميات**، معلمة المغرب، المجلد الحادي عشر، سلا 1421-2000، ص3603.

(٢٠) يتداول سكان الاطلس الكبير الغربي مثلاً مشهورًا وهو"ستي تسوت"، بمعنى "صفي تشرب" للدلالة على ضرورة تنقية الماء وتصفيته قبل شربه. ولهذا المثل على سبيل المجاز معنى آخر، وهو ضرورة التحلي بالاستقامة والمثابرة من أجل تحقيق الغايات.

(٢١) كلمة عامية متداولة على أوسع نطاق بالبوادي المغربية، لكن لم نتمكن من تفصيحها، غير أن شفيق محمد أوردها في معجمه بمعنى آخر:"...من الرخويات، هو حلزون البحر،أجغلال [L'escargot de mer]"، انظر: شفيق محمد، الدارجة المغربية مجال توارد بين الامازيغية والعربية، ص 113.

(٢٢) "كان باستور[Pasteur] قد قال: "إن مياه الينابيع التي تخرج من الأرض نقية من الميكروبات". لمزيد من الاطلاع، انظر:
PONCET(F), Les microbes de l'eau de VICHY.J.-B BALLIERES et FILS. Librairie-Editeurs. Paris 1891.p28

(٢٣) إفادة شفوية استمعنا إليها في اطار العمل الميداني بدوار ايت أكتل من قبيلة غجدامة بتاريخ 15غشت2021، وبتاريخ 23يونيو 2023 بأمزميز من قبيلة كدميوة .

(24) CHATINIERES(Paul), Op .cit ; p 251.

(٢٥) رويان بوجمعة، **مادة الحميات**، معلمة المغرب، المجلد الحادي عشر، سلا 1421-2000، ص3606.

(٢٦) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، **الرحمة في الطب والحكمة**، بيروت، د ت، ص 131.

(٢٧) يصنف هذا المرض عند البعض ضمن الأمراض الكولونيالية (الملاريا، مرض النوم)، انظر:
Programmes de l'enseignement du second degré, Instructions ministérielles relatives a l'application des arrêtes du 30 Aout 1937 et du 11 Avril 1938.p32.

(28) LANGERON(M), Anophèles du grand Atlas et de l'anti-Atlas Marocain .Archives de l'institut Pasteur du Maroc .Tome II.Fascicule1.1Janvier1938.p359.

(29) PAISSEAU(G) , La lutte contre le paludisme. In : Revue France-Maroc,3eme année, N° 1 , 15 janvier 1919 ,p15 .

(30) Ibid ,p14.

(٣١) رويان بوجمعة، **مادة الحميات معلمة المغرب**، المجلد الحادي عشر، سلا 2000، ص3603.

(32) DOUTTE (Edmond), Missions au Maroc. En tribu, Librairie PAUL GENTHNER, 1914. p30.

(٣٣) تصغير لكلمة "لبخة"، وهي "خرقة يجعل فيها دواء كالمرهم توضع حارة أو باردة على مكان الألم لتسكنه"، انظر:
https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%84%D8%A8%D8%AE%D8%A9/

(٣٤) تحمل هذه النبتة أسماء متعددة حسب المناطق بالمغرب، ومنها "ترهلا" بالمناطقة الناطقة بالعربية.

(٣٥) رويان بوجمعة، **مادة الحميات**، معلمة المغرب، المجلد الحادي عشر، سلا 1421-2000، ص3606.

(٣٦) نذكر من بين هذه الأضرحة: مولاي إبراهيم بجبل كيك وضريح لالة تكركوست بكدميوة وسيتي فاظمة باوريكة ولالة العزيزة بسكساوة ولالة تمليلت بكلاوة وسيدي عبد الله أولحساين

بغجدامة وغيرها كثير. ومعلوم أن الربط بين قبور الصلحاء وعيون الماء والأشجار مسألة شائعة بأفريقيا الشمالية"، انظر: إدمون، دوتي، **الصلحاء مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر**، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، البيضاء2014،ص،112.

(37) DOUTTE (Edmond) , Op.cit ;p 90.

(38) Notions générales sur le paludisme et les moyens de s'en préserver (Prophylaxie).Revue : Maroc-Medical,N°87 ,du 18Septembre1929.p341.

(٣٩) سمي بهذا الاسم نسبة إلى بلهارز [Bilharz] الطبيب الألماني الذي اكتشف الكائن الطفيلي المسبب للمرض في منتصف القرن التاسع عشر.

(٤٠) رويان بوجمعة، **الماء والصحة بالمغرب خلال فترة الحماية**، مساهمة ضمن ندوة: **الماء في تاريخ المغرب**. أيام ١٠-١١-١٢دجنبر ١٩٩٦م. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-عين الشق-سلسلة ندوات ومناظرات رقم:١١، مطبعة المعرف الجديدة-الرباط ١٩٩٩م.ص201.

(٤١) نفسه، ص202.

(42) JOB, La bilharziose au Maroc .Soc.med .hop.Paris(3(e) serie) .Dec .1915 .

(43) CARROSSE et BERNEOUD, La bilharziose vésicale à Marrakech (SHISTOSOMA HAEMATOBIUM). Archive de l'institut Pasteur d'Algérie, T.VII.fas1.Mars1929.p51.

(44) LEPINAY, GREVIN et BIETRIX ,Un cas de Bilharziose vésicale contractée à Marrakech . "Maroc-Médical",N°94 du 15 Avril1930.p130.

(٤٥) استعمال فاكهة الحنظل في علاج هذا المرض، سمعناها من عدة روايات بالمجال، في كل من دوار ايت اكتل بقبيلة غجدامة، وبدوار ألكجي باوريكة، وبإجوكاك بمنطقة نفيس وذلك في اطار زيارات ميدانية متفرقة قادتنا الى تلك المناطق.

(46) Flay-Saint-Marie ,Lamibiase en milieu indigène Marocain Etude épidémiologique et observations parasitologiques. Maroc-Médical N°166 du 15 Avril 1936.p152.

(٤٧) ظلت الأبقار التي ترعى بأكدال ياكور (بمنطقة تيغدوين) تعاني لمدة طويلة من حشرة العلق "تيضى "، التي تعلق بحلوقها فتصيبها بالهزال المفضي الى الموت. لكن مالكي الأبقار المصابة اهتدوا في فترة معينة -من اجل علاجها -الى سقيها بالمياه المعدنية التي كانوا يجلبونها من إحدى العيون بأربعاء تغدوين، فكان القطيع المصاب بالعلق يبرأ منه، حسب رواية استمعنا إليها في إطار العمل الميداني بتاريخ 27 ماي 2022.

(48) COUSIN(Albert) et SAURIN(Daniel), LE MAROC, Librairie du FIGARO, Paris, 1905. p268.

(٤٩) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، **الرحمة في الطب والحكمة**. دار إحياء الكتب العربية. بدون تاريخ. ص124.

(50) BOUVERET(Dr), Extractions des sangsues fixées dans le Cavum . Revue « Maroc- Médical », N°44 du 15 Aout 1925.p312.

(51) CHATINIERES(Paul), Op.cit ;pp 14,144 ,206.

(52) TRUTAT (Eugéne),LES PYRENEES ,Les montagnes ,Les glaciers ,Les eaux minérales ,Les phénomènes de l'atmosphère ,La flore ,La faune et l'Homme . LIBRAIEIE J.-B.BAILLIERE et FILS .Paris 1894,p352.

(53) Ibidem.

(54) Ibidem.

(55) AUGUSTIN (Bernard) ,Le Maroc .Librairie FELIX ALGAN .Paris 1916 ,p271.

(56) Ibid, p369.

(57) DUPUCH(Henri), J'étais médecin au Maroc (1942-1958) . Préface : MICHEL JOBER, Editions France. empire. Paris sans année, p5.

(58) AUGUSTIN (Bernard) ,Op.Cit ;p378.

(59) CHATINIERES(Paul),Op.cit ;pp 14,144 ,206

(60) Ibid ;p2.

(٦١) **الجريدة الرسمية** للدولة المغربية الشريفة المحمدية. عدد 38 بتاريخ 25 صفر عام 1332 الموافق ل23يناير1914.

(62) MAURAN(Dr),L'effort sanitaires au Maroc .Revue :France-Maroc . N° 17 du 15 Juillet 1917 .p18.

(63) Ibidem .

(٦٤) العسبي لحسن، **غنيمة حرب الطب الحديث بالمغرب 1888-1940** الدار البيضاء 2022. ص214.

(٦٥) ماتزال أجزاء من بنايات هذه المستوصفات قائمة الى وقتنا هذا، منها التي خضعت للتوسيع وإعادة التهيئة بعد الاستقلال، لتستمر في وظيفتها الصحية كما هي الحال في مركز امي –ن-تانوت و مركز ايت اورير ،ومنها التي تم طمس معالمها لتتحول الى سكن كما هو الحال في ثلاث-ن-يعقوب .(حظيت هذه المواقع بزيارات ميدانية)

(٦٦) رويان بوجمعة، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945**، الرباط2013، ص299.

(٦٧) تم افتتاح مستوصف تازارت سنة ١٩٣١ بطلب من باشا مدينة مراكش القائد التهامي الكلاوي ، حيث سلم لهذا الغرض قطعة من الأرض للآباء الفرنسيسكانيين [Les franciscains] وقام الاب شارل أندري بواسونيي [Charles- Andre Poissonier]على الفور بمباشرة البناء.

(68) AUGUSTIN (Bernard), Op .cit,p372.

(٦٩) "منحت مدينة مراكش، منذ سنة 1912م، سلطة إدارية تدبيرية خاصة في كامل المجال الترابي الذي احتلته فرنسا من مجموع المغرب. الامر الذي خولها في المجال الصحي أن تشكل إدارة جهوية "شبه مستقلة" يمتد نفوذها على كامل الجنوب المغربي من وارززات في الجنوب الشرقي ودمنات في الشمال الشرقي حتى أكادير في الجنوب الغربي والصويرة في الشمال الغربي"، انظر: العسبي لحسن، **غنيمة حرب الطب الحديث بالمغرب 1888-1940** الدار البيضاء2022 .صص229-245.

(70) Résidence générale de la république Française au Maroc. Conseil de gouvernement. Séance des 10 ,11et 12 Juillet1945.Imprimerie officielle, Rabat1945.p188.

(٧١) شكاك صالح، **المغرب العميق ورديغة الكبرى 1873-1956 مساهمة في دراسة تاريخ الجهات بالمغرب المعاصر**. تقديم: محمد كنبيب، الطبعة الأولى2010. ص225.

(72) CHARBONNEAU(P) et Mlle KOCHER(G), La médecine préventive au Maroc. Bulletin économique et social du Maroc. Volume XIX ,N°67,Troisieme trimestre 1955,Decembre 1955.p302

(٧٣) العسبي لحسن، **غنيمة حرب الطب الحديث بالمغرب**،.....ص 237.

(74) PAISSEAU(G) , La lutte contre le paludisme. In : Revue France-Maroc,3eme année, N° 1 , 15 janvier 1919 ,p17 .

(75) DUVAL(Jean), L'œuvre Française au Maroc: TAZERT ou la charité le CHRIST chez les berbères. Journal : MAROC-MONDE, N°85 ,3eme année, Le 14 Septembre 1947. p 4 .

(76) Ibidem.

(77) Ibidem .

(78) Ibidem .

(79) DUVAL(Jean),Op .cit ;p4.

(٨٠) **الجريدة الرسمية** للدولة المغربية الشريفة المحمدية. عدد 161 بتاريخ 26رجب عام1334 الموافق ل29مايو1916. ص425.

(٨١) وقفنا في إطار العمل الميداني الذي قادنا خلال فترات متفرقة الى مرتفعات وسفوح ودير جبال اطلس مراكش، على العشرات من الآبار والنطفيات التي تنحدر من المرحلة الاستعمارية و التي ما تزال أطلالها موجودة الى يومنا هذا.

(٨٢) العسبي لحسن، **غنيمة حرب الطب الحديث بالمغرب**.....،ص234.

(٨٣) نفسه، ص 236.

(٨٤) مكننا مسح سريع ببعض الأعداد لجريدة كولونيالية تدعى " L'Echo d'Alger" من تسجيل بعد الحالات نوردها حسب الجدول التالي للإشارة فقط:

مكان الخطارة	تاريخ العثور على الجثة	جنسها وجنسيتها	المرجع
نواحي مراكش	4شتنبر1931	زنجية إفريقية	عدد 8001، بتاريخ 5شتنبر1931، السنة العشرون، ص4.
	شهر يوليوز1931	رجل اسباني	
	-	سيدة مغربية	عدد 7981، بتاريخ 10غشت1931، السنة العشرون، ص4.
ضواحي مراكش	26يوليوز1932	سيدة أوروبية مع فرسها	عدد 8327، بتاريخ 27يوليوز1932، السنة الواحدة والعشرون، ص4.
تسلطانت	28يدجنبر1933	جثة مجهولة عالقة في الوحل	عدد 8547، بتاريخ 29دجنبر1933، السنة الثانية و العشرون، ص2.
منطقة فروكة	27فبراير1934	سيدة مغربية مسلمة عمرها سنة مخنوقة بحبل	عدد 8608، بتاريخ 28فبراير1934، السنة الثالثة والعشرون، ص2.
باب الخميس بمراكش	20شتنبر1934	شخص مغربي مسلم يدعى بنلعربي	عدد 8813، بتاريخ 21شتنبر1934، السنة الثالثة العشرون، ص4.

(85) DOUTTE (Edmond), Op .cit ;p134 .

(٨٦) نعت بعض الكتاب الكولونياليين هذا السلوك بـ "الدكتاتورية الطبية"، انظر: دانيال ريفي، **الطب الاستعماري أداة استبدادية متسامحة لمراقبة السكان**. تعريب: عزوز هيشور وعبد القادر مومن. مجلة أمل، العدد6 - السنة الثانية 1995، ص120.

(٨٧) نفسه، ص123.